الوقف والابتداء في القرآن الكريم المفهوم والأهميّة والمسار

م.م ابتسام عبد الأمير جبار جامعة الشعب/ كلية العلوم الإداريَّة والماليّة

الملخَّص:

ممّا هو مسلّمٌ به عند جميع الباحثين أنّ الجهود العلميّة الّتي بذلها علماء المسلمين من أجل خدمة كتاب الله تعالى لا تضاهيها جهود أيّ أمّةٍ من أمم الأرض، وحسبنا ما كتبه أولئك الأفذاذ من مؤلّفاتٍ في علوم القرآن، والتّفسير، وأسباب النّزول، والقراءات، والإعجاز، والبلاغة دليلًا على عظم هذه الجهود وندرتها كمًّا ونوعًا.

ولعلّ جهودهم في علم الوقف والابتداء في القرآن الكريم تحاكي ما قدّموه في العلوم القرآنيّة المذكورة سلفًا؛ لأهمّيّته التي يفصح عنها حدّه بأنّه: "علم تمام المعنى في كتاب الله تعالى" ومن هنا جاءت ضرورة تعلّمه وتعليمه للقرّاء، ولطلبة علوم العربيّة عمومًا، وبناءً على هذه الرؤية العلميّة لا يجد الباحثون بدًّا من أن يسهموا في تتبّع مفاهيم هذا العلم ومساره التّطوّريّ منذ نزول القرآن الكريم، وحتّى مراحل متأخرةٍ من تاريخ القرآن؛ رصدًا لتطوّر هذا العلم في محطّاته التّاريخيّة الكبرى بحسب الظروف والأحوال الّتي آل إليها واقع اللسان العربيّ بعد أن بعدت الشّقّة بينه وبين مناهل لغته الصّافية بسبب اتّساع رقعة العالم الإسلاميّ، واختلاط أبنائه مع أبناء الأمم الأخرى ممّا أورثهم لغةً هجينةً، وثقافةً متنوّعةً مثّلت فيما بعد عائقًا حقيقيًّا

حال بينهم وبين هويّتهم اللغويّة والثّقافيّة، ومن ثمّ أدرك الغيارى من علماء هذه الأمّة خطورة هذا العائق على هويّة القوم الدّينيّة وعلى دستورها الأكبر (القرآن الكريم)، فكان الخطر أكبر ، والتّهديد أشدّ فما كان منهم، وقتئذٍ، إلّا أن يشمّروا عن ساعد الجدّ، ويكشفوا عن همّةٍ كبيرةٍ في تأسيس علومٍ ستكون مرشدةً لأبناء أمّتهم، وعاصمةً لألسنتهم من اللحن والخطأ في ما يقولونه ويكتبونه، فبتعلّمها سيلتحقون بقوافل العرب الفصحاء، وسيتحدّثون على وفق سنن اللسان العربيّ وعاداته الكلاميّة، كما لو أنّهم يعيشون في عصور الفصاحة التّليدة.

في ضوء هذا المنظور العلميّ ومقتضاه المعرفيّ جاء إسهامنا هذا لبيان مفاهيم هذا العلم وتمييزها عن مفاهيم محاقلةٍ لها ومتقاطعةٍ معها ثمّ تتبّع مساره التّاريخيّ من مرحلة ما قبل نزول القرآن بوصفه جزءًا من طبيعة اللسان العربيّ مرورًا بأهميّته إبّان نزول كتاب الله تعالى في عصر النّبوّة وتلقيه في العصور التّالية وصولًا إلى زماننا الحالي. ويحاول هذا البحث أن يسلّط الضّوء على كلّ ما يمتّ بصلةٍ إلى هذا العلم وأهميّته وتطبيقاته وعلاقته بكشف نقاب المعنى عن تراكيب القرآن، وبيان ما يلحق المعنى من ضررٍ في حال عدم مراعاة أحكامه.

وأمّا بشأن الدّراسات السّابقة فهي، على الرّغم من كثرتها، لا تتطابق مع ما جاء في هذا البحث من حيث المنهج أو المعالجات، وأمّا المصادر الّتي اعتمدتها فيه فهي متنوّعةٌ من المعجمات، وكتب اللغة، والتّراجم، وكتب علوم القرآن، ومصادر الوقف والابتداء، والقراءات القرآنيّة، وكتب أحكام التّلاوة. وكُلِّي أَملٌ أَن يُحقِّقَ هذا البحثُ غايَتَهُ ويُسدَّ فَراغًا فِي المكتبةِ العربيَّةِ في علمِ الوقفِ والابتداءِ، وأن ينفعَ طلَبةِ هذا العلمِ.

الكلمات المفتاحيَّة: (الوقف، الابتداء، المسار، السَّكت، القطع).

Pausing and Initiating in the Noble Quran: Conceptualization, Significance, and Historical Trajectory

Asst. Lect. Ibtisam Abd al-Amīr Jabbar
University of the People, College of Administrative and Financial Sciences

Abstract

The scholarly activities of Muslim intellectuals in service of the Divine Scripture remain unparalleled among the intellectual legacies of nations. Their monumental contributions, evidenced in works on Qur'anic sciences (*ʿulum al-Quran*), exegesis (*tafsir*), contexts of revelation (*asbab al-nuzul*), recitational variants (*qiraʾat*), inimitability (*iʿjaz*), and rhetoric (*balaghah*)—attest to the profundity and uniqueness of their efforts. Among these disciplines, the science of *al-waqf wa al-ibtidaʾ* (pausing and initiating in Qur'anic recitation) stands as a critical pillar, defined as the "science of semantic completion in the Scripture of Allah." Its indispensability for Quran reciters and students of Arabic linguistics necessitated rigorous scholarly engagement to trace its conceptual evolution from the Quran's revelation through subsequent historical phases, particularly amid the linguistic fragmentation precipitated by the Islamic expansion.

The hybridization of Arabic through contact with non-Arabic vernaculars and the resultant cultural heterogeneity posed existential threats to the Ummah's linguistic and religious identity. Recognizing this peril, erudite scholars mobilized to codify philological sciences that would safeguard the Quran's linguistic integrity and guide adherents in

adhering to the norms of classical Arabic (*fuṣḥa*), thereby reconnecting them to the linguistic ethos of the *aṣr al-faṣaḥah* (Golden Age of Eloquence).

This study lights the conceptual boundaries of *al-waqf wa al-ibtidaʾ*, distinguishing it from adjacent disciplines, while reconstructing its historical trajectory: from its roots in pre-Qur'anic Arabic elocution, through its crystallization during the Prophetic era and subsequent codification, to its contemporary applications. The research further examines the science's role in elucidating Qur'anic semantic structures and the interpretive distortions arising from non-compliance with its principles.

Though prior studies on the topic abound, this inquiry diverges methodologically, drawing on a multidisciplinary corpus: lexica, biographical dictionaries, Qur'anic sciences literature, recitational jurisprudence (*aḥkam al-tilawah*), and classical treatises on *waqf* and *ibtidaʾ*. It aspires to fill a lacuna in Arabic scholarship and serve as a pedagogical resource for students of this discipline.

Keywords: Pausing (*al-Waqf*) – Initiating (*al-Ibtidaʾ*) – Historical Trajectory (*al-Masar*) – Prosodic Pause (*al-Sakt*) – Terminal Cessation (*al-Qaṭʿ*).

تعريف الوقف والابتداء لغةً واصطلاحًا:

1- تعريف الوقف لغةً واصطلاحًا:

الوقف لغةً: جاء في معجم مقاييس اللغة: "الواو، والقاف، والفاء: أصلٌ واحدٌ يدلّ على تمكّثٍ في شيءٍ، ثمّ يقاس عليه. منه وقفت أقف وقوفًا.." (ابن فارس، 2008: 1062).

ووقف بالمكان وقفةً ووقوفًا، وإذا وقّفت الرّجل على كلمةٍ، قلت: وقّفته توقيفًا (ابن منظور، 2005: 4338/4 و4339).

ووقف القارئ على الكلمة وقوفًا، ووقف الكلمة وقفًا، ووقّفت القارئ توقيفًا، علّمته مواضع الوقوف (الزمخشري، 2003، ينظر: 917).

الوقف اصطلاحًا: تعدّدت تعريفات الوقف بحسب تصوّر علماء هذا الفنّ وتباينت تبعًا لهذا. وقبل أن أذكر أمثلةً من هذه التّعريفات المتعدّدة سأذكر تعريف الحافظ أبي الخير محمّد بن محمّد الدّمشقيّ الشّهير بابن الجزريّ (ت833هـ) فهو أوفى تعريفٍ للوقف: "عبارةٌ عن قطع الصّوت على الكلمة زمنًا يتنفّس فيه عادةً بنيّة استئناف القراءة إمّا بما يلي الحرف الموقوف عليه، أو بما قبله كما تقدّم جوازه في أقسامه الثّلاثة لا بنيّة الاعتراض، وتنبغي البسملة معه في فواتح السّور كما سيأتي، ويأتي في رؤوس الآي، وأوسطها، ولا يأتي في وسط الكلمة، ولا فيما اتّصل رسمًا.. ولابدّ من التّنفّس معه.." (ابن الجزريّ: 240/1).

وينقل أبو العبّاس أحمد بن محمّد القسطلانيّ (ت923هـ) عددًا من تعريفات الوقف منسوبةً إلى أصحابها، ويمكن عرضها بالآتي:

1- تعريف أبي حيّان (ت745هـ): "هو قطع النّطق عند آخر اللفظ، وهو مجازٌ من قطع السّير، وكأنّ لسانه عاملٌ في الحروف، ثمّ قطع عمله فيها" (القسطلانيّ: 490/2).

2- تعريف ابن الحاجب (ت646هـ): "قطع الكلمة عمّا بعدها" (القسطلانيّ: 490/2)، (العتيبيّ، 2021، ينظر: 617/2).

3- تعريف الجعبريّ (ت732هـ): "قطع صوت القارئ على آخر الكلمة الوضعيّة زمانًا" (القسطلانيّ: 2/ 490).

ولو عدنا إلى تعريف ابن الجزريّ وجدناه، كما ذكرت آنفًا، أدقّ هذه التّعريفات؛ لأنّه جامعٌ مانعٌ وهذان الوصفان هما شرط الحدّ التّامّ الصّحيح، وآية كونه جامعًا مانعًا أنّه أخرج (السّكت) من حدّ الوقف بقوله: "عبارةٌ عن قطع الصّوت على الكلمة زمنًا يتنفّس فيه.."

فممّا هو معلومٌ أنّ السّكت لا يجوز أخذ النّفس فيه وإنّما هو مكوثٌ على مواضع مخصوصةٍ في الرّواية زمنًا أقلّ من زمن الوقف من غير تنفسٍ، وأنّه أخرج القطع في القراءة الّذي يفهم منه الخروج الكليّ، على ما سيرد لاحقًا، عن القراءة بقوله: "بنيّة استئناف القراءة إمّا بما يلي الحرف الموقوف عليه، أو بما قبله.."

فتعريف ابن الجزريّ، لاريب، جامعٌ لكلّ ما يدخل فيه من مصاديق الوقف ومانعًا من أن يدخل فيه ما ليس منه كالسّكت والقطع الكليّ؛ وسيرد هذا التّفريق بين هذه المصطلحات لاحقًا بإذن الله تعالى.

تعريف الابتداء لغةً واصطلاحًا:

الابتداء لغةً:

جاء في معجم مقاييس اللغة: "الباء والدّال والهمزة من افتتاح الشّيء، يقال: بدأت بالأمر وابتدأت من الابتداء، والله تعالى المبدئ والبادئ، قال تعالى عزّ وجلّ: (إنّه هو يبدئ ويعيد) البروج/13" (ابن فارس، 2008: 102).

وجاء في مفردات ألفاظ القرآن: "يقال بدأت بكذا، وأبدأت، أي: قدّمت، والبدء والابتداء: تقديم الشّيء على غيره ضربًا من التّقديم..." (الأصفهاني: 113).

وجاء في المصباح المنير: "... وبدأت الشّيء وبالشّيء أبدأ بدءًا بهمز الكلّ، وابتدأت به قدّمته..." (الفيوميّ، 2008: 30).

الابتداء اصطلاحًا:

جاء في كتاب التّعريفات: "الابتداء: هو أوّل جزءٍ من المصراع الثّاني...الابتداء العرفيّ: يطلق على الشّيء الّذي يقع قبل المقصود فيتناول (الحمدلة) بعد (البسملة)" (الجرجاني: 9).

ومن الجدير بالملاحظة والذّكر أنّ علماء هذا الفنّ لم يعنوا بالابتداء عنايتهم بالوقف؛ ربّما لأنّ الأوّل اختياريٌّ بيد أنّ الأخير اضطراريٌّ، ومن ثمّ فاحتمال ارتكاب الخلل في القراءة عندما يكون القارئ مضطرًّا أكثر منه عندما يكون مختارًا؛ لأنّ قدرة الإنسان التّنفّسيّة محدودةٌ وبالتّالي لا بدّ له من الوقف نظرًا لهذه الضّرورة. بخلاف حاله مع الابتداء إذ ليس هناك ما يضطرّه فهو مختارٌ في الابتداء على أيّة حالٍ. ولعلّ هذا يفسّر لنا عدم ذكر

علماء الوقف والابتداء تعريفًا للابتداء بخلاف الوقف الّذي كثرت تعريفاته في تضاعيف مصنّفاتهم..

وسأختار هنا تعريف الابتداء للدّكتور إبرهيم عوض صالح، لأنّه بحسب رؤيتي جامعٌ مانعٌ، كما أورده: "هو استئناف القراءة بعد الوقف، أو هو الشّروع في التّلاوة بعد قطعٍ أو وقفٍ فإن كان بعد قطعٍ فعلى القارئ عند الشّروع في التّلاوة أن يستعيذ ويبسمل سواء كان في أوائل السّور أو في أواسطها" (عوض، 2019: 19، 20).

لماذا قدّم الوقف على الابتداء؟

قدّم علماء هذا الفنّ الوقف على الابتداء وإن كان متأخّرًا في الرّتبة؛ لأنّ كلامهم في الوقف ناشئٌ عن الوصل، والابتداء النّاشئ عن الوقف يكون بعده (عوض، 2019: 20).

الوقف والقطع والسّكت (التّداخل والتّخارج المصطلحيّ)

اختلف علماء هذا الفنّ في التّحديد المصطلحيّ لمفهوم الوقف؛ لتداخله مع مصطلحين آخرين هما (القطع والسّكت)؛ ولأنّ القاعدة المشهورة عندهم: "لا مشاحّة في الاصطلاح" فإنّهم لا يجدون بعد ذلك حرجًا في تعدّد المصطلحات للمفهومٍ واحدٍ.

وعلى أيّة حالٍ فبعض علماء هذا الفنّ يقول بترادف هذه المصطلحات في حين ينكر آخرون منهم هذا التّرادف، ويضع فروقًا تفصح عن الاختلاف بينها.

وسنكتفي بما أورده العلّامة أحمد بن محمّد بن عبد الكريم الأشمونيّ (من علماء القرن الحادي عشر الهجريّ) في هذه المسألة بقوله: "...والوقف والقطع والسّكت بمعنى، وقيل: القطع عبارةٌ عن قطع القراءة رأسًا،

والسّكت عبارةٌ عن قطع الصّوت زمنًا ما دون زمن الوقف عادةً من غير تنفّسٍ..." (الأشموني، 2002: 24، 25).

فمذهب من يرى التّرادف بين هذه المصطلحات الثّلاثة يعتمد رؤيةً في اتّساع المفهوم العامّ لهذه المصطلحات، أي: إنّ ما ينتج (الوقف، والقطع، والسّكت) هو الكفّ عن وصل القراءة.

وأمّا من يرى عدم التّرادف بينها فيعتمد رؤيةً محدّدةً بنوع الكفّ لا بجنسه العامّ، فإنّ القطع، كما قيل، عبارةٌ عن قطع القراءة رأسًا ويلزم منه الخروج الكليّ عن القراءة والتّحوّل إلى حالةٍ أخرى من الفعل أو التّكلّم.

والسّكت، كما قيل، قطع الصّوت زمنًا ما دون زمن الوقف عادةً من غير تنفّسٍ.

ويكون في مواضع محدّدةٍ بحسب ما نصّ عليه القرّاء. ولا يلزم منه مراعاة محدوديّة النّفس ومن ثمّ الاضطرار إلى الوقف. فقد يحصل ذلك وإن كان في نفس القارئ طولٌ؛ لأنّه يلزم القارئ بالمكوث على بعض المواضع المخصوصة دون أخذ نفسٍ.

ويظهر ممّا ذكرته أنّ الوقف الّذي نحن بصدده يختلف تمامًا عن مصطلحي القطع الكليّ والسكت، وبالعودة إلى تعريف ابن الجزريّ يتّضح ذلك غاية الوضوح.

أهميّة علم الوقف والابتداء:

يعدّ هذا العلم جزءًا من العلوم اللغويّة الّتي ترتبط باللسان العربيّ الفصيح، ويمثّل الخطأ فيه عيبًا يؤدّي إلى فساد المعنى، وتحريف القصد من الكلام؛ ولذلك أدرك العرب منذ زمنٍ بعيدٍ خطورة هذا الفنّ وأهمّيّته في كلامهم؛ فحرصوا على معرفة مواضعه الصّحيحة في كلامهم إذ به يتحقق

تمام معنى كلامهم، وبجهله يقع فساد المعنى وما يتبعه من مواقف نفسيّةٍ مؤلمةٍ، ومشاعر إنسانيّةٍ تصل بسببه إلى الخصومة والخلاف أو إلى الكفر الصّريح والبراءة من أصول الاعتقاد؛ ومن هنا ازدادت أهميّة مراعاته في كتاب الله الكريم؛ إذ به يتبيّن مقصود الخطاب الإلهيّ للمكلّفين؛ وبسبب الجهل به يغيب المقصود ويحرّف النّصّ ويحال بيننا وبين فهم معاني القرآن الكريم، وهذه لعمري طامّةٌ كبرى، وآفةٌ مهلكةٌ.

ومن الدّلائل البيّنات على أهميّة معرفة هذا الفنّ وأثره في معنى القول عند العرب ما نقله علماء الوقف والابتداء في تضاعيف مصنّفاتهم.

ومن ذلك ما أورده الدّاني (ت444هـ) بقوله: "وممّا يبيّن ذلك ويوضّحه ما روي عن تميمٍ الطّائيّ عن عديّ بن حاتمٍ (رضي الله عنه) قال: جاء رجلان إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فتشهّد أحدهما، فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، من يعصهما: فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): (قم أو اذهب بئس الخطيب أنت)" (الداني، 2001: 3) وإنما أقامه الرّسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، لأنّه سوّى بين حال من أطاع ومن عصى، وكان عليه أن يقف عند قوله: (فقد رشد)، ثمّ يستأنف الكلام فيقول: (ومن يعصهما فقد غوى)، أو أن يصل الكلام بعضه مع بعضٍ لتتمايز حالة المطيع من العاصي.

ويعقّب النّحّاس (ت338هـ) على هذه الرّواية قائلًا: "ولم يسأله [أي: النّبيّ (صلّى الله عليه وآله)] عن نيّته[أي: نيّة الخطيب] ولا ما أراد" (النّحّاس، 2002: 31).

ويزيد على هذه الرّواية أنّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله) أنكر على من قال: ما شاء الله وشئت، وأنّ النّبيّ (صلّى الله عليه وآله) لم يسأل المتكلّم لهذا الكلام عن نيّته، وإنّما اكتفى بفهم المعنى من كلامه (النّحّاس، 2002: 31).

وسئل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ (عليه السّلام) عن قوله تعالى: "ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا" وقد رأينا الكافر يقتل المسلم فكيف يكون هذا؟ فأجاب (عليه السّلام) بقوله: اقرأ ما قبلها: "فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا"، فقال: إنّما يكون ذلك يوم القيامة (النّحّاس، 2002: 29).

ولذلك حرص علماء هذا الفنّ على بيان أهميّة هذا العلم. وحسبنا ما ذكره علم الدّين السّخاويّ (ت643هـ) عن فائدته قائلًا: "ففي معرفة الوقف والابتداء الّذي دوّنه العلماء تبيين معاني القرآن العظيم، وتعريف مقاصده، وإظهار فوائده، وبه يتهيّأ الغوص على درره وفرائده.." (السّخاويّ، 1993: 2/ 387).

وقال في موضعٍ آخر: "وقد اختار العلماء وأئمّة القرّاء تبيين معاني كلام الله عزّ وجلّ وتكميل معانيه، وجعلوا الوقف منبّهًا على المعنى، ومفصّلًا بعضه عن بعضٍ، وبذلك تلذّ التلاوة، ويحصل الفهم والدّراية، ويتّضح منهاج الهداية." (السّخاويّ، 1993: 2/ 388).

وهذا ما يفسّر قول أبي بكرٍ محمّد بن القاسم الأنباريّ (ت328هـ): "ومن تمام معرفة إعراب القرآن ومعانيه وغريبه معرفة الوقف ولابتداء فيه" (الطّرهونيّ، 2007: 78).

وأورد الهذليّ: "قال علقمة (ت62هـ): قال ابن مسعودٍ: العدد مسامير القرآن، وأنا أقول: الوقف مسامير القرآن ودسره. قال أبو حاتمٍ (ت255هـ): من لم يعرف الوقف لم يعلم ما يقرأ.. وهذا القرآن نزل باللغة العربيّة، والوقف والقطع من حليتها، فإذًا الوقف حلية التّلاوة وتحلية الدّراية، وزينة القارئ، وبلاغة التّالي، وفهم المستمع، وفخر العالم، إذا ثبت ذلك فلابدّ من معرفة ما يبتدأ به ويوقف عليه." (الهذليّ، 2014: 176).

ويقول ابن الجزريّ: "لمّا لم يمكن للقارئ أن يقرأ السّورة أو القصّة في نفسٍ واحدٍ، ولم يجز التّنفّس بين كلمتين حالة الوصل بل ذلك كالتّنفّس في أثناء الكلمة وجب حينئذٍ اختيار وقفٍ للتّنفّس والاستراحة، وتعيّن ارتضاء ابتداءٍ بعد التّنفّس والاستراحة، وتحتّم ألّا يكون ذلك ممّا يخلّ بالمعنى، ولا يخلّ بالفهم إذ بذلك يظهر الإعجاز ويحصل القصد؛ ولذلك حرص الأئمّة على تعلّمه ومعرفته.." (ابن الجزريّ: 225/1).

ونقل السيوطيّ عن النّكزاويّ: "باب الوقف عظيم القدر، جليل الخطر؛ لأنّه لا يتأتّى لأحدٍ معرفة معاني القرآن، ولا استنباط الأدلّة الشّرعيّة إلّا بمعرفة الفواصل" (السيوطي، 1973: 1/ 83).

ونظرًا لما أوردناه سلفًا يقرّر المعاصرون من علماء هذا الفنّ أهميّته بقولهم: "فالوقف والابتداء لهما أهميّةٌ كبيرةٌ عند قراءة القرآن؛ حيث إنّهما يخدمان معظم فروع الدّين...فيحتاج إليهما المفسّر، ويحتاج إليهما عالم التّوحيد، وعالم الفقه، والقراءات..." (المعصراويّ، 2016: 23).

السّيرورة التّاريخيّة لهذا العلم:

يعود تاريخ هذا العلم إلى زمنٍ بعيدٍ تؤكّده بعض الأخبار المنقولة عن العرب، ومنها على سبيل الذّكر لا الحصر ما نقله ابن النّحّاس من أنّ رجلًا من العرب كانت معه ناقةٌ سئل: أتبيعها بكذا؟ فقال: لا عافاك الله، فقال له السّائل: لا تقل هكذا، ولكن قل: لا وعافاك الله، فأنكر عليه لفظه (الدّعاء بجملة لا عافاك الله؛ لأنّها تفيد معنى زوال العافية، لامعنى الرّزق بالعافية)، ولم يسأله عن نيّته (النّحّاس، 2002: 31).

فعلّمه الصّواب وهو: لا وعافاك الله، التّي تكوّنت من:

1- لا حرف الجواب عن سؤاله: أ تبيعها بكذا؟

2- واو الفصل الّتي تقضي أنّ ما بعدها غير داخلٍ في حكم ما قبلها.

3- الدّعاء بالعافية للسّائل من باب أدب الحوار، وحسن الحديث.

وجاءت الأخبار في كتب الوقف والابتداء تنصّ على أنّ المسلمين الأوائل كانوا يتعلّمون الوقف والابتداء في القرآن مع تعلّمهم القرآن (النّحّاس، 2002: 27)، (الداني، 2001، ينظر: 4)، (السيوطي، 1973، ينظر: 83/1)، (الأشموني، 2002: ينظر: 12)، وفي هذا يقول ابن النحّاس (ت338هـ): "فهذا يدلّ على أنّهم كانوا يتعلّمون، التّمام [أي: الوقوف التّامّ] كما يتعلمون القرآن" (النّحّاس، 2002: 27).

ويؤكّد صحّة هذا الرّأي قول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ (عليه السّلام) في قوله تعالى: ﴿ورتّل القرآن ترتيلا﴾ أي: تجويد الحروف ومعرفة الوقوف (الهذليّ، 2014، ينظر: 118، 176)، (ابن الجزري، 2001، ينظر: 60).

ولمّا بعدت الشّقّة بين المسلمين والعربيّة الفصحى بسبب اختلاطهم مع أبناء الأمم الأخرى فشاع اللحن وفسدت الألسنة ومن ثمّ احتاجوا إلى ما يعينهم على قراءة كتاب الله قراءةً صحيحةً بعيدةً عن اللحن وسوء الفهم فكان لهم ما أرادوا بعد أن شمّر العلماء عن ساعد الجدّ وبذلوا جهودًا جبّارةً في هذا السّبيل، ومن بواكير هذه الجهود ما فعله ظالم بن عمرٍو أبو الأسود الدّؤليّ (ت69هـ) من وضع حركات الإعراب، أو ما سمّي بنقط الإعراب (الحلبي: 10، 11).

وما فعله النّصر بن عاصمٍ الليثيّ (ت90هـ) الّذي أعجم الحروف بوضع النّقط عليها أفرادًا وأزواجًا، وخالف بين أماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف، وبعضها تحت الحروف (العسكري، 1963، ينظر: 13).

فكان من التّدبير المنطقيّ بعد ذلك أن يتبعوا هذين الجهدين بجهدٍ ثالثٍ بأن يضعوا علاماتٍ للوقف في المصاحف ليعينوا القارئ على الوقف والابتداء غير المخلّين.

ولمّا أهمل التّاريخ العلميّ لعلوم القرآن ذكر من وضع هذه العلامات فعلينا أن نفكّر في الزّمن الّذي وضعت فيه والرّاجح هو القرن الثّالث الهجريّ بدليل ما ورد عن أبي يوسف الأنصاريّ (ت189هـ) بشأن أنواع الوقف التّامّ والحسن والكافي والقبيح وإشكاله عليها بأنّها بدعةٌ محيسن، 1992، ينظر: 20.[1]

ويقويّ هذا التّحديد أنّ العاميّة واللحن تفشيا في القرن الثاني الهجريّ في بغداد.

أوّل من ألّفَ في الوقف والابتداء:

كتب علماء الوقف والابتداء مؤلفاتٍ كثيرةً مخطوطةً ومطبوعةً محقّقةً وقد أفرد الدّكتور عبد الكريم إبراهيم عوض قائمةً طويلةً لكتب الوقف والابتداء المؤلّفة اعتمد في إحصائها على مدوّنات التّراث وفهارس المخطوطات والكتب الحديثة ولا أجد مقتضًى منهجيًّا لتكرارها هنا مرّةً ثانيةً فالبارود لا يكتشف مرّتين كما يقال. وقد بدأ إحصاءه بذكر ضرار بن صرد بن سليمان التّميميّ الكوفيّ (ت 129هـ) الّذي ألّف كتابًا بعنوان (الوقف والابتداء) وأنهى إحصاءه بذكر كتاب الشّيخ محمود خليل الحصريّ شيخ مشايخ المقارئ المصريّة سابقًا الموسوم بـ(معالم الاهتداء إلى معرفة الوقف والابتداء) (عوض، 2019، ينظر: 25- 35).

[1] وفي مسألة رأي أبي يوسف في تسمية أنواع الوقف بأنّها بدعةٌ (ينظر: السّخاويّ، 1993).

وسنكتفي، هنا، بذكر أشهر المصادر المطبوعة في علم الوقف والابتداء أو عموم علم القراءات والتّجويد وقد تضمّنت دراسةً لهذا العلم بحسب التّسلسل الزّمنيّ:

1- الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ، لأبي جعفرٍ محمّد بن سعدان الكوفيّ الضّرير (ت231هـ)، تحقيق: محمّد خليل الزّروق، النّاشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط/2 (1430هـ-2009م). هو أقدم كتابٍ في هذا العلم وصل إلينا محقّقًا.

2- إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ، لأبي بكرٍ محمّد بن القاسم بن محمّد بن بشّار بن الحسن الأنباريّ (ت328هـ)، تحقيق: الشّيخ عبد الطّرهونيّ، النّاشر: دار الحديث، القاهرة (1428هـ-2007م).

3- القطع والأتناف أو الوقف والابتداء، لأبي جعفرٍ أحمد بن محمّد بن إسماعيل النّحّاس (ت338هـ).

4- المكتفى في الوقف والابتداء، لأبي عمرٍو عثمان بن سعيد بن عثمان الدّانيّ (ت444هـ)، تحقيق: الدّكتور: محيي الدّين عبد الرّحمن رمضان، النّاشر: دار عمّار –عمّان، ط/1 (1422هـ-2001م).

5- الكامل في القراءات، لأبي القاسم يوسف بن عليّ بن جبّارة المغربيّ الهذليّ (ت465هـ)، تحقيق: أبو إبراهيم عمرو بن عبد الله، النّاشر: دار سما للكتاب، ط/1 (1435هـ-2014م).

6- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّدٍ الجرجانيّ (ت471هـ)، تحقيق: محمود محمّد شاكر، النّاشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط/5 (1424هـ-2004م). وقد وضع المؤلّف فيه فصلًا مهمًّا أسماه بـ(الفصل والوصل) ناقش فيه مسائل مهمّةً من علم الوقف والابتداء وأوضح

علاقتها بالمعنى القرآنيّ وإعجازه إلى جانب نقده لبعض مفاهيم هذا العلم بطرحٍ جديدٍ.

7- الوقف والابتداء لمحمّد بن طيفورٍ السّجاونديّ (ت560هـ)، تحقيق: الدّكتور محسن درويش، النّاشر: دار المناهج-عمّان (1422هـ-2001م).

8- نظام الأداء في الوقف والابتداء، لابن الطّحّان عبد العزيز بن عليّ (ت بعد 560هـ)، تحقيق: الدّكتور عليّ حسين البوّاب، النّاشر: مكتبة المعارف بالرّياض (1406هـ-1985م).

9- جمال القرّاء وكمال الإقراء، لعلم الدّين أبي الحسن عليّ بن محمّدٍ السّخاويّ (ت643هـ)، تحقيق: الدّكتور عبد الكريم الزّبيديّ، النّاشر: دار البلاغة، ط/1 (1413هـ-1993م).

10- وصف الاهتداء في الوقف والابتداء لبرهان الدّين الجعبريّ (ت 732هـ)، تحقيق ودراسة: الدّكتور نوّاف بن معيض الحارثيّ، طبع في المملكة العربيّة السّعوديّة.

11- النّشر في القراءات العشر، للحافظ أبي الخير محمّد بن محمّد الدّمشقيّ الشّهير بابن الجزريّ (ت833هـ)تحقيق: الشّيخ عليّ محمّد الضّبّاع، النّاشر: دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان (د-ت).

12- التّمهيد في علم التّجويد، لشمس الدّين أبي الخير محمّد بن الجزريّ (ت833هـ)، تحقيق: غانم قدّوري حمد، النّاشر: مؤسّسة الرّسالة، ط/1 (1421هـ-2001م).

13- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدّين عبد الرّحمن السّيوطيّ (ت911هـ)، النّاشر: مكتبة لبنان (1973م)، فقد ذكر فيه النّوع الثّامن والعشرين من علوم القرآن وهو معرفة الوقف والابتداء.

14- لطائف الإشارات إلى معاني القراءات، لأبي العبّاس أحمد بن محمّدٍ القسطلانيّ (ت923هـ)تحقيق: مركز الدّراسات القرآنيّة، المملكة العربيّة السّعوديّة (د-ت).

15- المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتدا، للشّيخ الإمام زكريا الأنصاريّ (926هـ). النّاشر: دار الكتب العلميّة، ط/1 (1422هـ-2002م) مطبوع مع كتاب منار الهدى في بيان الوقف والابتدا.

16- منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، للعلّامة أحمد بن محمّد بن عبد الكريم الأشمونيّ (من علماء القرن الحادي عشر الهجريّ)، النّاشر: دار الكتب العلميّة، ط/1 (1422هـ-2002م).

الخلاف في أقدم كتابٍ في الوقف والابتداء وصلنا محققًا:

ذكر علماء هذا الفنّ أنّ أبا بكرٍ محمّد بن القاسم بن محمّد بن بشّار بن الحسن الأنباريّ ألّف فيه كتابًا أسماه (إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ) وفيه يقول ابن الجزريّ (ت833هـ): "وكتابه- يقصد ابن الأنباريّ- في الوقف والابتداء أوّل ما ألّف فيه وأحسن" .

ويقصد ابن الجزريّ أنّه أوّل ما ألّف في ذلك مبسوطًا مشروحًا مبيّن العلل.

وقال أبو عمر الدّانيّ (444هـ): "سمعت بعض أصحابنا يقول عن شيخٍ له أنّ ابن الأنباريّ لمّا صنّف كتابه في الوقف والابتداء، جيء به إلى ابن مجاهدٍ فنظر فيه، وقال: لقد كان في نفسي أن أعمل في هذا المعنى كتابًا وما ترك هذا الشّابّ لمصنّفٍ ما يصنّف".

والصّواب أنّ أبا عبد الله محمّد بن سعدان الكوفيّ الضّرير (ت231هـ) ألّف قبله كتابًا مميّزًا وأسماه بـ(الوقف والابتداء في كتاب الله). وهو من مصادر ابن الأنباريّ في كتابه سابق الذّكر. وقد وصلنا كلٌّ منهما محقّقًا.

ومن أشهر مؤلّفات الوقف والابتداء الحديثة الّتي يمكن الإفادة منها:

1- الوقف والابتداء وأثرهما في اختلاف المفسّرين، الدّكتور أحمد عيسى المعصراويّ، والشّيخ محمّد الدّسوقي أمين كحيلة، النّاشر: دار السّلام، ط/2، (1437هـ-20016م).

2- الكشف عن أحكام الوقف والوصل في العربيّة، الدّكتور: محمّد سالم محيسن، النّاشر: دار الجيل، بيروت، ط/1 (1412هـ-1992م).

3- الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم: ، النّاشر: دار السّلام، القاهرة، ط/5 (1440هـ-2019م).

4- التّأصيل والتّقعيد لأقسام الوقف والابتداء ومعاييره ومراتبه في تلاوة القرآن المجيد، محمود عبد الجليل روزن، النّاشر: المكتبة الحيدريّة، القاهرة، ط/1 (1442هـ-2021م).

الخاتمة

في نهاية هذا البحث أودّ أن أبيّن أهمّ النّتائج الّتي توصّلت إليها، وهي:

1- ينبغي أن نفرّق بين ثلاثة مصطلحاتٍ في هذا العلم متداخلةٍ، هي (الوقف، والسّكت، والقطع) فالوقف: "عبارةٌ عن قطع الصّوت على الكلمة زمنًا يتنفّس فيه.. وأمّا السّكت فلا يجوز أخذ النّفس فيه وإنّما هو مكوثٌ على مواضع مخصوصةٍ في الرّواية زمنًا أقلّ من زمن الوقف من غير تنفسٍ. وأمّا القطع في القراءة فيفهم منه الخروج الكليّ عن القراءة بقوله: "بنيّة استئناف القراءة إمّا بما يلي الحرف الموقوف عليه، أو بما قبله.." .

2- إنّ هذا العلم جزءٌ من كلام العرب، وهو قديمٌ قدم العربيّة، وقد راعاه المتحدّث العربيّ في كلامه نظرًا لخطورته على المعنى؛ ولمّا كان القرآن العظيم قد نزل بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ كان الأولى أن يراعي القرّاء هذا العلم في قراءتهم حفاظًا على مقاصد النّصّ القرآنيّ.

3- ذكر علماء هذا الفنّ أنّ أبا بكرٍ محمّد بن القاسم بن محمّد بن بشّار بن الحسن الأنباريّ ألّف فيه كتابًا أسماه (إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ) وفيه يقول ابن الجزريّ (ت833هـ): "وكتابه- يقصد ابن الأنباريّ- في الوقف والابتداء أوّل ما ألّف فيه وأحسن". والصّواب أنّ أبا عبد الله محمّد بن سعدان الكوفيّ الضّرير (ت231هـ) ألّف قبله كتابًا مميّزًا وأسماه بـ(الوقف والابتداء في كتاب الله). وهو من مصادر ابن الأنباريّ في كتابه سابق الذّكر. وقد وصلنا كلٌّ منهما محقّقًا.

4- جاءت الأخبار تنصّ على أنّ المسلمين الأوائل كانوا يتعلّمون الوقف والابتداء في القرآن مع تعلّمهم إيّاه؛ وهذا يدلّ على أهميّته وخطره في تفسير القرآن وبيان مقاصده.

5- وجود علامات الوقف والابتداء في المصحف في مرحلةٍ متأخّرةٍ من تاريخ القرآن يشي بجهل القرّاء في الغالب بمعرفة مواطن الوقف والابتداء، بسبب ابتعاد النّاطقين بالعربيّة عن سليقتهم الفصيحة، وتداعيات هذا الجهل على فهم النّصّ القرآني، وتلقّيه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن الجزريّ، شمس الدّين أبي الخير محمّد (ت833هـ). التّمهيد في علم التّجويد. تحقيق: غانم قدّوري حمد. النّاشر: مؤسّسة الرّسالة. ط/1 (1421هـ-2001م).

- ابن الجزريّ، للحافظ أبي الخير محمّد بن محمّد الدّمشقيّ (ت833هـ). النّشر في القراءات العشر. تحقيق: الشّيخ عليّ محمّد الضّبّاع. النّاشر: دار الكتب العلميّة. بيروت-لبنان (د-ت).

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريّا (ت395هـ). معجم مقاييس اللغة. النّاشر: دار إحياء التّراث العربيّ. بيروت (1429هـ-2008م).

- ابن منظور. أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرّم بن منظور الأفريقيّ المصريّ (ت711هـ). لسان العرب. تحقيق: د- يوسف البقاعي وصاحبيه. النّاشر: الدّار المتوسطيّة للنّشر والتّوزيع. الجمهوريّة التّونسيّة. ط/1 (1426هـ-2005م).

- الأشمونيّ، للعلّامة أحمد بن محمّد بن عبد الكريم (من علماء القرن الحادي عشر الهجريّ). منار الهدى في بيان الوقف والابتدا. النّاشر: دار الكتب العلميّة. ط/1 (1422هـ-2002م).

- الأصفهانيّ، للرّاغب (ت في حدود 425هـ). مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: عبد الرّحمن داودي. قم إيران.

- الجرجانيّ، للعلّامة عليّ بن محمّد السّيّد الشّريف (ت816هـ). معجم التّعريفات. تحقيق: محمّد صدّيق المنشاوي. النّاشر: دار الفضيلة. مصر (د-ت).

- الحلبيّ، أبو الطّيّب عبد الواحد بن عليّ اللغويّ (ت351هـ). مراتب النّحويّين. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. النّاشر: مكتبة النّهضة بالفجّالة. (د-ت).

- الدّانيّ، أبو عمرٍو عثمان بن سعيد بن عثمان. المكتفى في الوقف والابتدا. تحقيق: الدّكتور: محيي الدّين عبد الرّحمن رمضان. النّاشر: دار عمّار –عمّان. ط/1 (1422هـ-2001م).

- الزّمخشريّ. جار الله محمود بن عمر (ت538هـ). أساس البلاغة: 917. تحقيق: د- محمّد أحمد قاسم. النّاشر: المكتبة العصريّة. صيدا- بيروت. ط/1 (1423هـ-2003م).

- السّخاويّ، جمال القرّاء وكمال الإقراء. علم الدّين أبي الحسن عليّ بن محمّدٍ (ت643هـ). تحقيق: الدّكتور عبد الكريم الزّبيديّ. النّاشر: دار البلاغة. ط/1 (1413هـ1993م).

- السيوطيّ. جلال الدّين عبد الرّحمن (ت911هـ). الإتقان في علوم القرآن. النّاشر: المكتبة الثّقافيّة بيروت-لبنان (1973م).

- الطّرهونيّ، تحقيق: الشّيخ عبد الرّحيم. إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ. النّاشر: دار الحديث-القاهرة. (1428هـ-2007م).

- العتيبيّ، تحقيق: د.غازي بن خلف. شرح الشّافية لمصنّفها ابن الحاجب (ت646هـ). النّاشر: مكتبة الرّشد. المملكة العربيّة السّعوديّة. ط/1 (1442هـ-2021م).

- العسكريّ، أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيدٍ (ت382هـ). شرح ما يقع فيه التّصحيف والتّحريف. تحقيق: عبد العزيز أحمد. النّاشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ. مصر. ط1 (1383-1963م).

- عوض، د. عبد الكريم إبراهيم صالح. الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم. النّاشر: دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط/5 (1440هـ-2019م). جمهوريّة مصر العربيّة.

- الفيوميّ، للعلّامة أحمد بن محمّد بن عليّ. المصباح المنير. تحقيق: يحيى مراد. النّاشر: مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع. ط/1 (1429هـ-2008م).

- القسطلانيّ، أبو العبّاس أحمد بن محمّدٍ (ت923هـ). لطائف الإشارات إلى معاني القراءات. تحقيق: مركز الدّراسات القرآنيّة. المملكة العربيّة السّعوديّة (د-ت).

- محيسن، د. محمّد سالم. الكشف عن أحكام الوقف والوصل في العربيّة: النّاشر: دار الجيل. بيروت. ط/1 (1412هـ-1992م).

- المعصراويّ، كحيلة، د. أحمد عيسى. والشّيخ محمّد الدّسوقي أمين. الوقف والابتداء وأثرهما في اختلاف المفسّرين. الدّكتور النّاشر: دار السّلام. ط/2. (1437هـ-2016م).

- النّحّاس، أبو جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل. القطع والائتناف أو القطع والابتداء. تحقيق: أحمد فريد المزيديّ. النّاشر: دار الكتب العلميّة-بيروت. ط1423/1هـ-2002م.

- الهذليّ، أبو القاسم يوسف بن عليّ بن جبّارة المغربيّ (ت465هـ). الكامل في القراءات. تحقيق: أبي إبراهيم عمرو بن عبد الله. النّاشر: دار سما للكتاب. ط/1 (1435هـ-2014م).